

الجزائر والهوية الأمازيغية

أ. عبد الوهاب زيان*

مقدمة :

إن عالمنا اليوم مليء بالنزاعات والانقسامات ، رغم وجود تكتلات واتحادات ، فبقدر ما تسعى بعض الحكومات إلى إزالة الحواجز بين دولها لتوحيد شعوبها لمواجهة خطر العولمة ، التي فرضت نفسها بفعل التطور التكنولوجي الهائل ، نجد دولا أخرى تعاني صراعات وانشقاقات حتى في حدود الدولة الواحدة .

نجد في هذه الدول انبعاثا جديدا للثقافات الأصلية مقابل تراجع الثقافات العصرية . إن ذلك كائن في مجتمعات العالم الثالث التي لم تدرك بعد ولم تع وعيا حقيقيا خطر العولمة التي تتسارع في الانتشار .

إن التواصل بين الثقافات والحوار بين الحضارات ، يؤدي إلى تفاهم متبادل إذا ما توافرت الشروط الملائمة ووجد أجيالا واعية تحمل على أعناقها عبء هذا التواصل والرغبة والإرادة في التبادل .

لكن إذا لم تكن النخب في هذه الدول في مستوى التطلعات وإذا لم تعزز بالمواقف والقرارات من قبل الهيئات والحكومات قد يؤدي ذلك إلى صدام بين الحضارات والثقافات ، أمام عجز في الداخل وتربص بالخارج .

أولا: مفهوم الهوية⁽¹⁾

يشق المعنى اللغوي للهوية من الضمير : هو ، ويشير مفهوم الهوية إلى ما يكون به الشيء هو هو ، أي من حيث تشخصه وتحققه في ذاته ، وتمييزه عن غيره ، فهو وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري .

وتأسيسا على المقاربة الفلسفية ، تعبر الهوية عن حقيقة الشيء

* معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المركز الجامعي العقيد أكلي محند أولحاج ، بالبويرة .

المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره ، كما تعبر عن خاصية المطابقة ، أي مطابقة الشيء لنفسه أو لمثيله ، وبالتالي ، فهوية شعب ما تعني الخصائص والمميزات النفسية والاجتماعية والثقافية والجغرافية ، التي تجمعهم وتعبر عن كيانهم ، فهم متشابهون فيما بينهم وفي نفس الوقت متميزون عن غيرهم ، فمن الصعب أن نتصور شعبا بدون هوية ، أو نفتتن بما يزعمه (شايفان داريوس) أن الهوية صورة مغلوطة للذات لقد أثبتت الدراسات السوسولوجية ، أن لكل جماعة أو أمة مجموعة من الخصائص والمميزات الاجتماعية والنفسية والتاريخية والجغرافية والمعيشية التي تعبر عن كيانهم ، حيث ينصهرون فيه وينسجمون ويتشابهون بتأثير هذه الخصائص والمميزات التي تجمعهم .

ثانيا : أشكال الهوية(2)

(أ) الهوية الثقافية :

قبل التطرق إلى الهوية الثقافية تجدر الإشارة إلى مفهوم الثقافة ، يعرفها تايلور على أنها « الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة ، والاعتقاد والفن والحقوق والأخلاق والعادات ، وكل قدرات وأعراف أخرى اكتسبها الإنسان كفرد في مجتمع » (3) وبذلك فإن الهوية الثقافية لشعب ما ، تتحدد على أساس ثقافته التي تعتبر المرجعية الأساسية للتمييز بين المجتمعات ، ولقد أدى تبني الثقافة للتمييز بين المجتمعات ، إلى ظهور الثقافوية لدى الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع أمثال : كاردينر وما لكلياند ولينتون وبنديكت ، ابتداء من أواخر القرن 19 . (4)

(ب) الهوية التاريخية : (5)

عندما تجتمع الأحداث التاريخية في صنع ملمحة شعب ما أو قوم ، فإنهم يتشابهون في مرجعيتهم التاريخية التي تميزهم عن غيرهم ، وقد تندرج فيها عدة شعوب ، مثلما كان الحال في خمسينيات من القرن الماضي ، حيث ظهرت موجة التحرر في دول إفريقيا وآسيا وظهرت تكتل للدول الأفروآسيوية تحت نطاق التحرر ورميا إلى التوقيع في إطار الثنائية القطبية ، باسم مجموعة 77 وكذلك دول عدم الانحياز وفيما بعد فتحت الباب لظهور العلاقات جنوب جنوب .

(ج) الهوية السياسية : (6)

بالرغم من أن الاتجاه الثقافي ، هو الأكثر بروزا لدى علماء الأنثروبولوجيا للتمييز بين المجتمعات ، إلا أن الهوية السياسية هي التي أصبحت تميز المجتمعات وتفصل بين الدول ، من خلال ضمها شعبا أو أمة في حدود جغرافية معينة لقد ظهرت الهوية السياسية ، بظهور القوميات الأوروبية في القرن 18 ، فتوحدت الجمهوريات الفرنسية والإيطالية كذلك وتقوم الهوية السياسية على مجموعة من المقومات وتتمثل في :

- المجال الجغرافي المشترك .
- التاريخ المشترك .
- ثقافة شعبية مشتركة .
- لغة مشتركة .
- منظومة حقوق وواجبات مشتركة .
- اقتصاد مشترك .

(د) الهوية الدينية :

يطلق عليها الهوية الدينية أو الهوية العقائدية وظهرت بظهور الأديان والرسول ، ولكنها تجلت أكثر بمجيء الإسلام ، فجعل الله الدين رابطة قوية ، بل هي أقوى من الروابط الأخرى بقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (7) وقوله ﴿وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ (8) ولقد جمع الدين الإسلامي عبر التاريخ في الدول التي قامت على أنقاض الخلافة الراشدة بين تركيبات حضارية متنوعة ، كالحضارة الفارسية والعربية والأمازيغية والأوروبية .

ثالثا: الهوية الأمازيغية

عندما نتحدث عن الهوية الأمازيغية ، تتجه الأذهان إلى الشخصيات التي خلدت أسماءها عبر التاريخ ابتداء من شاشناق إلى ماسينيسا فالكاينة وإلى فاطمة لالا نسومر ثم إلى العقيد عميروش ويدور في الأذهان كذلك ، اللغة الأمازيغية وسكان شمال إفريقيا .

تستند الهوية الأمازيغية إلى الهوية السياسية وإلى الهوية الثقافية ، باعتبار شمال إفريقيا موطننا للأمازيغ وباعتبار اللغة والثقافة الأمازيغية

والعادات والتقاليد التي حافظوا عليها على مر العصور بالرغم من تنامي الاستعمارات من بين هذه العادات نذكر ثيمشروط ، ثيوزي ، ثاجمعت لقد انصهرت الهوية الأمازيغية في الهوية الدينية بعد مجيء الإسلام إلى شمال إفريقيا ، ثم انصهرت تحت نطاق الهوية السياسية بعد انقسام شمال إفريقيا بعد سقوط دولة الموحدين ، وتجسد ذلك أكثر بعد استقلال الجزائر التي لم تفسح المجال أمام بروز الهوية الأمازيغية ، بدعوى وحدة الوطن والاحتجاج بالإسلام لفرض العروبة وغض الطرف عن الأمازيغية .

رابعاً : الأمازيغية في الجزائر قبل الاستقلال

لم تشكل الهوية الأمازيغية ، أزمة ولا قضية أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر ، وذلك بالرغم من محاولات الاستعمار للتفريق بين الجزائريين انطلاقاً من الأمازيغية للتمييز بين العرب والقبائل إلا أنها لم تفلح .

لقد رد الثوار الجزائريون على هذه المحاولات ، بعقد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 بمنطقة الصومام ، لتنفيذ دعوى فرنسا أنها أحكمت قبضتها على منطقة القبائل وعلى أن الجزائريين صف واحد ، وهمهم الوحيد هو تصفية الاستعمار .

لكن يرى بعض المؤرخين أن مرحلة ما قبل الثورة ومرحلة الثورة المسلحة ، كانت مرحلتين إقصاء للبعد الأمازيغي في الهوية الوطنية والتركيز على البعد العربي والإسلامي وكان لهذا أثر كبير بعد استقلال الجزائر .

خامساً : الأمازيغية بعد الاستقلال

بعد استقلال الجزائر في 5 جويلية 1962 ظهر الانشقاق في صفوف الحركة الوطنية بخروج حزب جبهة القوى الاشتراكية بزعامة آيت أحمد عن النظام ، ولكن سرعان ما تم رأب الصدع في سنة 1963 ، وبعد الانقلاب في جون 1965 ، واعتلاء هواري بومدين لهرم السلطة ، ازداد التركيز على البعد العربي ضمن مجموعة حزب البعث العربي الاشتراكي الذي وجد جذورا له في مصر والعراق وسوريا .

حتى أن أمرية أفريل 1976 (9) الخاصة بتنظيم التعليم في الجزائر ، أهملت تماما اللغة الأمازيغية ، بل همشتها حتى في التعاملات اليومية

وألقي بـبعض الشخصيات في السجن أمثال السعيد سعدي والآخر في المنفى أمثال أيت أحمد وعبان رمضان ، وأدى هذا الاحتقان إلى الانفجار سنة 1980 في تيزي وزو ⁽¹⁰⁾ لفتح المجال أمام اللغة الأمازيغية ووقف التعريب بالجامعة .

لقد أدت أحداث أفريل 1980 إلى ميلاد البعد الأمازيغي من جديد ، ولكن بصورة غير بارزة بسبب التعتيم الإعلامي ، وجاء موعد 05 أكتوبر 1988 لتجد اللغة الأمازيغية متنفسا لها من خلال الأحزاب السياسية وحرية التعبير وحرية الصحافة ، إلا أن الدولة لم تقم بأي خطوة رسمية لإبراز البعد الأمازيغي ضمن الهوية الوطنية أمام بروز التيار الإسلامي والعروبي ، إلى أن جاءت سنة 1998 ⁽¹¹⁾ أين تم اغتيال الفنان القبائلي معطوب لونس ، حيث خرجت جموع المواطنين في الولايات الثلاثة : تيزي وزو بجاية والبويرة مطالبة بلجنة تحقيق في اغتياله وكذلك المطالبة بتدريس الأمازيغية ، وكانت البداية محتشمة ، إلى غاية صدور أمرية جانفي 2008 ⁽¹²⁾ والتي صرحت في المادة 34 بتدريس اللغة الأمازيغية عبر الوطن ، ورغم ذلك فإن تجسيد هذا على أرض الواقع مازال في بداياته ، إلا أن المكسب الأول يتمثل في الاعتراف الرسمي بالهوية الأمازيغية للجزائر .

الهوامش والمراجع:

- 1 - محمد إبراهيم عيسى : الهوية والقلق والإبداع ، دار القاهرة ، 2002 ، طبعة 1 ، ص 11 .
- 2 - محمد العربي ولد خليفة : مسألة الهوية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دون ذكر السنة ، ص 19 .
- 3 - ريمون بودون وفرانسوا بوريكو : المعجم النقدي لعلم الاجتماع ، تر : سليم حداد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 ، الطبعة الأولى ، ص 128 .
- 4 - معن خليل عمر ، نفس المرجع ص 228 .
- 5 - محمد إبراهيم عيسى : مرجع سابق ، ص 50 .
- 6 - محمد العربي ولد خليفة : مرجع سابق ص 51 .
- 7 - سورة الحجرات ، الآية : 10 .
- 8 - سورة المؤمنون ، الآية : 52 .
- 9 - الجريدة الرسمية : القانون التوجيهي للتربية الوطنية ، أفريل 1976 .
- 10- Dalila Arwki : l'identité, Bébere, Atlantica, paris 2004 , P122
- 11- Ibid, P128 .
- 12 - الجريدة الرسمية : القانون التوجيهي للتربية الوطنية ، العدد ، جانفي . 2008 .